المرأة الفاضلة من يجدها (١)

نطق بهذه الكلمات كبير الحكماء بعد ان اختبر النساء واخلاقهن اكثر من كل حكيم سواه . نطق بها ملك الشعب العبراني الذي منحه الله من العزّ والجاه والغنى والحكمة ما لم يمنحه لملك غيره من ملوك شعبه . لم يترك سبباً من اسباب السرور الاّ استخدمه . جمع حواليه من النساء السيدات والسراري الف امرأة . كساهنّ بالحرير وزينهنّ بالجواهر

نطق بها الملك سليمان في دور انقلاب سياسي اجتماعي طرأ على بلاده . دور انتقال من بساطة الملك وخشونة المعيشة الى حال الرفاه والبذخ والجاه . دور انتقال من عصر الملك الراعي داوود بن يسى الى عصر سليمان باني الهيكل الفخيم وصاحب المجد الباذخ والغنى الوافر والزوجات العديدة والمركبات التي لاتحصى . دور انتقال من انفراد الشعب العبراني وعزلته الى دور الاختلاط بامم الارض الغريبة واقتباسه عوائدها واكتسابه منها الصنائع والفنون الجميلة

دخلت الادومات والصيدونيات والحثيات الى شعب اسرائيل بجمالهن الساحر وعوائدهنّ الاجنبية ومِلْنَ الى القصف والتهتك والاسترسال في التنعم بالملابس والمآكل والمشارب فاملن قلب سليمان وراء آلهة اخرى وجلبن الى شعبه الشرّ والويلات .

رأى سليمان الشرّ الذي جلبنه الى قصره وبلاده النساء الاجنبيات فحزنت نفسه وضاق صدره من خداعهن وكذبهن وانغماسهن باللذات والملاهي والكسل فناقت نفسه الى بساطة المرأة العبرانية كما كانت في عهد ابيه فصرخ من اعماق

(١) القي هذا الخطاب في الاحتفال السنوي لجمعية بنات الشفقة الارثوذكسية في زحله

قوادصرخة البائس الحزين — امرأة فاضلة من يجدها · بها يثق قلب زوجها ·
لا تأكل خبز العسل · تمد يديها الى المغزل ·

بلادنا الآن ايها المواطنون الاعزاء في دور انقلاب غريب دور انتقال من الانفراد الى الاختلاط الكلي بالاجانب · فهم قد دخلوا بلادنا من عهد غير بعيد ونحن في جهل عميق وتقهقر محزن ولكن مع تأخرنا وجهلنا كان لنا حسنات وفضائل تحسدنا عليها عقلاؤهم · حملوا الينا المضرّ والنافع من العوائد والافكار والازياء · بناتنا وابناؤنا هاجروا ولا يزالون يهاجرون من كل قرية ومدينة الى اميركا واوروبا واوسط اسيا وفي دور هجرتهم يمتزجون بالافرنج ويرون عوائداً تختلف عن عوائد اباهم واجدادهم فيبرون تحكم ناموس تقلد الضعيف للقوي ّ ان يكتسبوا عوائد الافرنج وازياءهم · والان بعد ان دكت اركان الحكم الاستبدادي لم يبق مانع في وجه المدنية القادمة من جهة الغرب فعلى سوريا الطبيعي وجمالها وخيراتها المدفونة في اراضيها ستجذب اليها من الافرنج اضعاف ما قدم اليها في عصر الجور والاستبداد وبهذا ستتعاظم اختلاطنا بالافرنج · ليس من بنكر ان تمدن الغرب اسمى من تمدننا الحاضر وان الافرنج قد سبقونا بمراحل في مضمار الحضارة ولكن في الغرب يوجد افات وشرور وموبقات ترتعدمنها فرائص الشرقية وجلاً ·

المرأة الافرنجية الفاضلة المتعلمة بلغت من التهذيب والارتقاء والفضائل ما لم تبلغه المرأة الشرقية بعد · ولكن المرأة الافرنجية الشريرة قد تفننت في ضروب الفسق والشرّ ونزلت الى احط دركات الفساد والهتك · وزد عَلَى ذلك ان بعض عادات الافرنج التي لا تحسب معيبة في بلادهم تضرنا ان اقتبسناها الان وذلك للاختلاف في الطباع والمشارب والتباين في التربية والافكار الموروثة · فيحق لنا وخيول التمدن الافرنجي بحسناته وسيآته قد صارت عَلَى الابواب ان نصرخ مع

سليمان الحكيم ليس صرخة القنوط واليأس بل صرخة الرجاء والامل — المرأة الفاضلة من بجدها — فهي التي تطالبها بلادها بتمييز الغث من السمين . هي التي تطالبها بلادها سواء اختلطت بالافرنج في الوطن او المهجر ان تنتفع بالحسن والمفيد من افكار الاجنبيات وتنبذ المضرّ والسيء . هي المسؤلة عن المدافعة عن فضائل المرأة الشرقية والحرص على ما ورثته من حسنات الحشمة والعفاف .

المرأة الفاضلة هي التي لا تعتدّ بالعرضي التافه والظواهر الكاذبة بل تطلب ان تتعلم من مدنية الغرب الجوهري الثابت المفيد . ايها يرجو الوطن ان تبذل القوى لردّ سيول الشرور الجارفة من الغرب ولفتح الاذرع والابواب لقبول فضائل الافرنج والانتفاع بعلومهم وما اليها .

ان تساحت ايتها الشرقية الفاضلة بالحكمة والشجاعة الادبية تردّين عن بلادك منكرات الغرب واستخدمين محاسنه لتوطيد اركان العمران والسعادة والتقدم بين ابناء جنسك وان ظهرت ضعفاً ومالت نفسك الى زخارف المدن الافرنجي وحسبت ان المدنية هي في تقليد سيئات الافرنج تضيفين الى فقر بلادك التعيسة بلاءً وثبوراً وتساعدين مظالم الاعصر الغابرة على سلب الشرق استقلاله الاجتماعي والسياسي

عليك ايتها المرأة الفاضلة يتوقف مستقبل شعبك وبلادك اكثر مما يتوقف على زوجك واخيك لانك انت مربية اولادك رجال المستقبل . فاعلمي انك انت المسؤلة امام الله والتاريخ . ان تصرفت بالتعقل والرزانة والحكمة اسعدت وطنك وكنت اثمن من الجواهر وان سمحت لنفسك والعياذ بالله للطيش والغرور فانت ستجرين سوريا الى هاوية الشقاء والتعاسة .

المرأة ايها المواطنون قوة فعالة تعظم وتفيد ان أحسنا تعاملها وتضعف وتضرّ ان أهملت او اسيء اليها .

انني ضيف جمعية من الاوانس الفاضلات وربما يظن البعض ان المقام يستدعيني الى الافراط في الثناء على المرأة والمبالغة في تعداد حسناتها اما انا فاني أجل جمعية بنات الشفقة عن ان تطلب التملق والمداهنة وعدا عن ذلك فاني رجل أكره الرياء وان ارضي وجب الحقيقة وان جرحت · ليس من غرضي الآن البحث عن المرأة بدقة علمية تاريخياً ولا انتقاد اراء الفلاسفة والعلماء في حسناتها وسيأتها ·

فقد زعم بعضهم انها سبب كل الشرور وقال فشوا عن المرأة فانكر عليها حقوقها وامتيازاتها · وبعضهم تمادى في الجور عليها حتى انكر عليها وجود نفسها واخرون نسبوا اليها كل خير وبرّ وبالغوا في مدحها حتى زعموا ان سماء الرجل منحصرة في الحصول على التمتع برضاها وبرأى عينها الثاقبة وخدمها الفطن · وقالت فئة ثالثة بلسان طريف افرنسي «بارك الله في المرأة لا نقدر ان نعيش معها ولا ان نعيش بدونها» ولكني لا ارى فيها هذا ولا ذاك فالمرأة في اعتقادي اخت الرجل تختلف عنه قليلاً بظاهر عواطفها وقواها العقلية · فهي تحب كما يحب وتبغض كما يبغض تحسد كما يحسد وتطلب الانتقام كما يطلبه · ان نشأت في وسط الفضيلة وكانت فطرتها الشخصية مبالة الى البر كانت ملاكاً كريماً وان شبّ تربت في مهد الشر وتساعدت على عقلها عوامل الجهل وسقطت على قلبها قوات الفجور تسقط كما يسقط الرجل — قل عنها ما شئت وصفها كما اردت فكلنا نهوى اعيبها النجلاء · نسعى بكل قوانا للحصول على رضاها وبذل النفس للدفاع عنها · وسبب هذا الهوى — وان شئت فسمه الجنون — حتى تطوى الصفحة الاخيرة من تاريخ الانسان · فلا غرو إذا رضخت للحاظ المها اسود الرجال في كل عصر وقطر ولا غرو اذا قال الملك العربي الشاعر

ما لي تطاوعني البرية كلها واطيعهن وهنّ في عصياني

ما ذاك الا ان سلطان الهوى وبه قوين اعز من سلطاني

يروى انه كان لرجل فارسي ثلاثة نساء وولد واحد واذ لم تكن حياته مع زوجاته هنيئة نعيمة طلقهن وطلب العزلة مع طفله في جبل من جبال فارس . لكرهه نساءه كره الجنس باجمعه ولوى ان يمنع ابنه عن رؤية النساء وعن معرفة وجودهن في الدنيا ولما بلغ الابن سن الرشد نزل به ابوه من الجبل الى مدينة طهران فاراه جوامعها الفخيمة واسواقها وبساتينها ومتنزهاتها وجاتبها وبلدان اراه كلما يستحق الزيارة تركا طهران قاصدين ملوآنا في الجبل وبينما هما سائرين وقعت عين الشاب على امرأة تخطر كالغزال مقنعة وعلى وجهها حجاب خفق قلبه وسأل والده ما هذا فاجابه ابوه هذا الشيطان الرجيم لا تنظر اليه فاطاع الشاب اباه وهو مشعر بعواطف نحو ذلك الشيطان ما تعودها قبلاً . ولما بلغا الجبل سأل الاب ابنه كيف احببت طهران يا ولدي ؟ فاجاب الولد بكل حرية وبساطة

- يا ابي لا احب في طهران شيئاً غير الشيطان الذي زجرتني لاني نظرت اليه .

شجاعة شجاعة

مصر

مسؤلية الامهات

تابع ما قبله

القسم الثالث وهم اصحاب الارادة القادرون على كبح جماح انفسهم والحكم على ارادتهم وعواطفهم واميالهم - وهذه الصفة هي كحجر الزاوية في بناء شخصية الانسان ونفسه فبواسطتها يتغلب الانسان على الحدة والطيش وبحكم الارادة يستعين العقل والضمير على اخضاع الشهوات والطبيعة الحيوانية - باخضاع الارادة يكن الانسان من ارتقاء سلم المجد والشرف فيهذب نفسه ويتمم واجباته نحو الله